الفصل الثانى

الأخـــلاق

حين نزلت أول سورة فى المدينة ، ميزت الأمة الاسلامية بأنهـا أمة وسط ، وبينت ما تهدف اليه تلك الوسطية « لتكونوا شهداء عـلى الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » • فالغاية اذن غاية خلقية ، تبغى أن يكون المسلمون نماذج يقتدى بها ، وشهداء يستشهد بها الناس •

وعبارات السلف فى « شهد » ــ كما يذكر ابن القيم (١) ــ تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والاخبار • ومن هنا لو جاز لى أن أحدد الصفة الرئيسية فى الوسطية العربية الاسلامية ، والتى ترتد اليها بقية الصفات ، لكانت هى صفة « العدالة » •

وتهدينا كتب التفسير الى تلك الصفة ، فينسب الطبرى الى من يسميهم « أهل التأويل » قولهم « الوسط العدل وذلك معنى الخيار لأن الخيار من الناس عدولهم » (٢) • والنسفى يصرح بهذا وهو يشرح قوله « ذكر أن الأمم تجحد تبليغ الانبياء يوم القيامة ، فيؤتى بأمة محمـد فيشهدون عليهم ، ويؤتى بمحمد فيسأل عن حالة أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم ، واستدل بتعميم ذلك على أن الاجماع حجة ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة » •

---

(١) مدارج السالكين ٣/٢٩٠

(٢) تفسير الطبرى ٣/١٤٢ . ويفسر الآية ٢٨ فى سورة « ن » وهى : « قال أوسطهم الم أقل لكم لولا تسبحون » فيقول : « وقوله : قال أوسطهم . يعنى أعدلهم . وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل » . ثم أورد روايات أهل التأويل حول ذلك .

ويرتد بنا التحليل اللغوى للألفاظ الى نصوص صريحة فى مدلولها ، فقد جاء فى اللسان فى مادة (وســط) « وفى التنزيل العزيز : وكذلك جعلناكم أمة وسطا • قال الزجاج : فيه قولان ، قال بعضهم مقسطــا عدلا • وقال بعضهم خيارا ، واللفظان مختلفان والمعنى واحد ، لأن العدل خير والخير عدل » وجاء فيه فى مادة (قوم) « والقوام العدل • قال تعالى : وكان بين ذلك قواما ••• وفى الحديث : أتانى ملك فقال : أنت قيم وخلقك قيم أى مستقيم حسن • وفى الحديث : ذلك الدين القيم ، أى المستقيم الذى لا زيغ فيه ولا ميل عن الحق • وقوله تعالى : فيها كتب قيمة (١) • أى مستقيمة تبين الحق من الباطل على استواء وبرهان عن الزجاج • وقوله تعالى : ذلك دين القيمة (٢) • أى دين الأمة القيمة بالحق ، ويجوز أن يكون دين الأمة المستقيمة • قال الجوهرى : انما أنث لأنه أراد الملة الحنيفية ••• والملة القيمة : المعتدلة والأمة القيمة كذلك ••• » •

فلعلى لا أكون بعيدا عن الواقع اللغوى وعن النصوص الدينية • لو قلت : ان قول الملك للنبى صلى الله عليه وسلم « أنت قيم وخلقك قيم » ، يعنى : أنت عدل وتتصف بالعدالة ، لأن القوام هو العــدل • وان قوله تعالى « ذلك دين القيمة » يعنى : دين العدالة ، أى « دين الأمة القيمة بالحق » •

ان فصول هذا الكتاب يتآزر بعضها على بعض ، مما يدل على صدق الخطوات التى تقدم فى النهاية وسطية عربية خاصة ، رمزنا لها فى فصل « الطبيعة » بالنخلة ، ورمزنا لها « بالقسطاس » حــين دخل العرب بفضل الاسلام فى جوف التاريخ ، ونرمز لها الآن « بالعدالة » ونحن نبحث عن الصفة الأولى فى الخلق العربى الاسلامى •

وقد جعل الدكتور محمد عبد الله دراز من « الحيــاء » السمة

---

(١) البينة ٣
(٢) البينة ٥

المميزة للاسلام ، واستدل بقول النبى صلى الله عليه وسلم « لكل دين خلق وخلق الاسلام الحياء » ولكن حين فسر مضمون الحياء ، نجده فى النهاية لا يختلف عن مضمون الوسطية ، فاذا كان الناس — كما ذكر — جعلوا اليهودية شريعة الخوف ، والنصرانية شريعة الحب ، فانه يجعل الاسلام شريعة الحياء ، وهى صفة تنتج من خلط عنصرى الخوف والرجاء ، فتكون المحصلة « حالة مخففة تقع بين انفعالين قويين » ، وربما يجوز لى أن أترجم هذه الحالة المخففة التى ذكرها ، الى لفظ واحد هو « الوسطية » • وهذا ما يكاد ينص عليه وهو يعلق على التفسير النهائى لكلمة الحياء فيقول « ان النظرية الاسلامية تجمع مختلف المبادىء اللازمة للحياة الخلقية ، فى تركيب ينسجم بحيث يجعلها جميعا تتجه نحو الوسط العادل » (١) •

تبقى اذن صفة العدالة هى السمة المميزة للاسلام ، ونستطيع أن نفسرها فى ضوء المفهوم الذى حددناه لاصطلاح الوسطية العربية ، فنراها تعنى النظر الى الجانبين ، وضم الحق الموجود هنا ، الى الحق الموجود هناك ، فى أنظومة أخيرة يسميها ابن القيم مقام الكمال ، وهو المقام الذى يجمع بين المقامين ، أى مقام الجلال عند اليهودية ومقام الجمال عند المسيحية ، ويسميها غيره « الصراط المستقيم » ، الذى يختلف فى محصلته النهائية عن صراط « المغضوب عليهم والضالين » أى اليهود والنصارى كما جاء فى التفاسير ، فهو مقام يجمع بين المقامين وفى أنظومة مختلفة •

ويرى النسفى فى تفسير « الفاتحة » أن الصراط المستقيم هو طريق الحق وملة الاسلام ، ويفسر ابن القيم هذا الصراط بأنه مقتضى التوحيد والعدل ، فيقول « فالصراط المستقيم الذى عليه ربنا تبارك وتعالى هو مقتضى التوحيد والعدل ، قال تعالى « وضرب الله مثلا رجلين ، أحدهما

---

(١) دستور الأخلاق ص ٥٣٠ .

أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأتى بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم » فهذا مثل ضربه لنفسه وللصنم ، فهو سبحانه الذى يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم • والصنم مثل العبد الذى هو كل على مولاه » (١) •

* * *

وفى ظل الوسطية قدم لنا الاسلام منهجا متكاملا ، يغطى كل شيء ، كعلاقة الانسان مع غيره وأهله ، وبدء السلام ، والاستئذان ، وطريقة الأكل ، وطريقة دخول الأماكن ، ولبس الثياب الجديدة ، وأيام الاعياد ، والختان ، والزفاف ، وغير ذلك مما نجده مبسوطا فى كتب الفقه والأحاديث، وبنوع خاص البخارى ، واحياء علوم الدين ، ورياض الصالحين • وقد عاش السلف فى ظل ذلك المنهج منطقيين مع أنفسهم ومع غيرهم ، لا يحسون بالتمزق بين وارد لا يعبر عنهم ، وقديم قد فقد فعاليته •

فالوسطية العربية التى تؤدى الى صفة العدالة ، أى الموازنة بين الجانبين ، يمكن أن تثمر خلقا انسانيا ، يراعى الدين والدنيا ، ولا يضخم جانبا على حساب آخر • وهذا عكس الذين يزعمون أن ثقافة العربى ، وعلاقته بالكون والطبيعة لا تسمح له بقيام أخلاق انسانية • بعضهم يرى ذلك ، لأن العربى متحد بالطبيعة اتحاد لا يسمح له بالمجاوزة ، وتكوين خلق قائم على الارادة البشرية « فلقد كانت حضارته كما تبدو حتى فى القرن العشرين ، مفرطة فى طبيعتها الى الحد الذى يعجزها عن السيطرة على الطبيعة ، فهى على النقيض من المجتمع الصناعى اذ أن عجزها عن امتلاك الطبيعة ، كان ناشئا عن تأليفها جزءا لا يتجزأ من هذه

---

(١) مدارج السالكين ٢٩٥/٣ . والآية من سورة النحل ٧٦ .

الطبيعة » (١) كما يقول بيرك • وبعضهم يرى ذلك لأن القوى الكونية مسيطرة غاية السيطرة ، وتملأ على الانسان وجوده ، فلا تعطيه من الارادة والفعل ما يستطيع به أن يكون أخلاقا من صنعه ، وتتكرر هذه الفكرة عند كثير من المفكرين والمستشرقين ، أمثال شبنجلر (٢) ، ونيكلسون (٣) ، وجرينباوم (٤) •

وكلا الطرفين قد فقد طرفى السلسلة ولم ينتبه الى التوازن بينهما • فبعضهم قد ركز على الواقع المعاصر للعرب وما فيه من التصاق بالواقع وتحول الانسان الى جزء لا يتجزأ من الطبيعة • وبعضهم قد وسع من مفهوم الحضارة العربية ، أو من مفهوم الثقافة العربية الخالصة ، فجعلها شبنجلر تشمل رقعة واسعة هى الحضارة الشرقية بما فيها الحضارة

---

(١) العرب ص ٣٦ •

(٢) « نجد الرجل السحرى (العربى) لا يشعر بوجوده الروحى الا باعتباره جزءا من روح كبرى • تنزل من أعلى على كل المشاركين فيها ، وتظل هى هى واحدة دائما ، فهو باعتباره جسما ونفسا هو هو ذاته ، ولا ينتسب الا الى ذاته ، ولكن يظل فيه باقيا دائما شىء غريب أجنبى عنه وعال عليه • ومن أجل هذا لا يشعر هو ومعتقداته ومعارفه بنفسه ، الا باعتبارها عضوا فى اجماع يمنع الضلال ، لأنه صادر عن القوة الالهية ، ولكنه يمنع أيضا الفرد أو الذات من أن يكون فى مقدورها أن تصنع شيئا ، لأن كل قيمة يصنعها الفرد ستكون صادرة عن الحكم الفردى ، وبالتالى عن النفس ، وكل ما يصدر عن النفس باطل وشر وغير جميل » (شبنجلر ص ١٤٢) •

(٣) « مقياس كل شىء فى الاسلام هو الله لا الانسان ، ولم يوجد فى الاسلام حتى الان مذهب انسانى ، يبين قيمة الفرد الانسانى من حيث هو فرد ، وينص على كفايته » • (فى التصوف الاسلامى ص ١٧١) •

(٤) « فقد اهتم الدين الجديد بأن يؤكد أنه لا خالق الا الله ، وأنه مطلق القدرة على كل شىء ، ولم ينس أن ينكر على الانسان كل قوة ، تثير فيه الغرور بكفاياته ومواهبه » (دراسات فى الادب العربى ص ٤٤) •

البابلية والفارسية واليهودية ، وأخذ يطبق أفكارا قد تكون يهودية على الحضارة العربية الاسلامية • ووسع نيكلسون من مفهوم الثقافة العربية ، فأخذ يطبق أفكارا غربية ومحاربة هى أفكار أصحاب وحدة الوجود ، على الواقع الاسلامى •

ان كل ما هنالك ان الشعرة الدقيقة قد تفلت من شخص ما ، فيخيل اليه أن الاسلام قد يفرط فى جانب تفريطا لا يسمح بقيام أخلاق انسانية، ولكن الحقيقة أن الوسطية العربية تسمح بقيام الأخلاق التى تقوم على الارادة البشرية • وقد قدم الاسلام منهجا تربويا متكاملا ، استطاع العرب به أن يؤسسوا حضارتهم ، وأن يهدوا للانسانية مثلا تقوم على العدالة والتوازن • ويؤكد الغزالى العامل الانسانى فى التربية ، ويذكر أن الأخلاق يمكن أن تتغير « وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، الا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة اذا تضافرت التربية اليها ، ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية ، فاذا صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية ، حتى لا يبقى لهما أثر ، لم نقدر عليه أصلا ، ولو أردنا ساستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه»(١)•

قد يبيح لنا هذا أن نتحدث عن أخلاق انسانية ، ولكن بمفهوم الانسان فى الحضارة العربية • يتحدث ابن القيم عن منزلة المروءة فيقول « المروءة فعولة من لفظ المرء ، كالفتوة من الفتى ، والانسانية من الانسان ، ولهذا كان حقيقتها اتصافا بصفات الانسان ، التى فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم » (٢) • ان هذا يعنى أخلاقا انسانية ، ولكنه لا يعنى «انسانية» بالمفهوم الذى شاع فى عصر النهضة الأوروبية ، والذى يضخم

---

(١) الاحياء ١٤٣٩/٢ .
(٢) مدارج السالكين ١٩٧/٢ .

من دور الانسان وتغييره للمـادة وصراعه مع الطبيعة وتفكيره فيما حوله بعيدا عن الغيبيات والميتافيزيقيات • بل يعنى انسانية بمفهوم الانسان فى الحضارة العربية ، والذى هو وسط فلا ينحط الى مرتبة الحيوان البهيم أو الشيطان الرجيم ، وليس مطلوبا منه أن يتسامى الى منزلة الملائكة فهى ليست فى مقدوره ، ولا يمكن للنواة أن تثمر تفاحا • ولعلى لا أختلف مع ابن القيم لو أضفت الى قوله « اتصاف النفس بصفات الانسان التى فارق بهـا الحيـوان البهيم والشيطان الرجيم » عبـارة « والملائكة المطهرين » • فنحن اذن أمام أخـلاق انسانية ، تؤمن بدور الانسان واختياره ، داخل ضرورة ترسمها له القوة العليا ، فلا تضخم الدور الانسانى بحيث يصبح الانسان وحده بطل المسرح فيعربد كما يشاء ، ولا تضخم دور القوة العليا بحيث يتحول المرء الى ريشة فى مهب الرياح •

* * *

واذا أردنا أن نحلل الأخلاق العربية و « الأدب » الاسلامى ، فسنجدها ترتد فى مواقف السلف وفى تحديداتهم ، الى صفة الوسطية أو العدالة التى توازن بين الجانبين ، يقول الامام على « خير الناس هذا النمط الأوسط ، يلحق بهم التالى ، ويرجع اليهم الغالى » (١) ويقـول الغزالى « فان المطلوب هو العدل والقسط فى الصفات والأخلاق كلها ، وخير الأمور أوساطها ، فاذا جاوز الوسط الى أحـد الطرفين ، عولج بما يرده الى الوسط لا بما يزيد ميله عن الوسط » (٢) • ويعرف ابن القيم « الأدب » بأنه الحد بين الجفاء والغلو ، أى مراعاة الوسطية ، ويضرب مثلا توضيحيا لذلك فيقول عن حقوق الخلق « ألا يفرط فى القيام بحقوقهم ، ولا يستغرق فيها عن حقوق الله أو عن تكميلها ، أو عن

---

(١) اللسان « وسط » .
(٢) الاحياء ٣/٢٣١٥ .

مصلحة دينه وقلبه ، وألا يجفو عنها حتى يعطلها بالكلية ، فان الطرفين من العدوان الضار ، وعلى هذا فحقيقة الأدب هو العدل » (١) • وفى موضع آخر يحدد « الظرف » عند أهل السر بما يعود به الى الوسطية ، وهو يعنى بالظرف الأنس بالخلق والانبساط اليهم ، ويحذر من « الاسترسال مع هذه الأمور ، فانها أقطع شىء للمريد والسالك ، فمن استرسل معها قطعته ، ومن عاداها بالكلية وعرت عليه طريق سلوكه ، ومن استعان بها اراحته فى طريقه ، وأراحت غيره به » (٢) •

واذا أردنا أن نسترسل مع الأمثلة فان المقام يطول بنا ، وأرى أن نعود هذه المرة أيضا الى الشيخ محمد عبد الله دراز فى رسالته للدكتوراه (٣) • لنقتبس منها ما يدل على مراعاة القرآن الكريم للوسطية فى أقواله التى « تقف فى منتصف الطريق بين المجرد ، غامضه ومبهمه ، وبين الحسى المفرط فى الشكلية » كما يقول • وفى أطره التى هى « صارمة ومرنة فى آن » كما يقول أيضا •

ففى فصل « الالزام » يتعرض لموقفين متناقضين ، أحدهما ويمثله « كانت » يجعل السلطة التشريعية كلها من شأن العقل الخالص ، ويعلى من القانون الشكلى ويتخذه أساسا للخير • والآخر على النقيض من

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢١٨ •

(٢) مدارج السالكين ٣/١١٣ •

(٣) نوقشت فى السربون فى ١٥ ــ ١٢ ــ ١٩٤٧ م • تحت عنوان «La Morale du Koran» وترجمها الدكتور عبد الصبور شاهين بعنوان « دستور الاخلاق فى القرآن الكريم » • وهى تبحث فيما يسميه « النظرية الاخلاقية كما يمكن استخلاصها من القرآن مقارنة بالنظريات الاخرى قديمها وحديثها » ، ويبحث هذه النظرية فى فصول خمسة •

١ ــ الالزام • ٢ ــ المسئولية • ٣ ــ الجزاء •
٤ ــ النية والدوافع • ٥ ــ الجهد •

ذلك — ويمثله جيو Guyau ونيتشه — يدافع عن قضية الحرية التجريبية للذات ويرى أن القيمة الأخلاقية لا توجد مسبقا فى نظام الأشياء الازلية ، بل هى ابداع انسانى يتجاوز به الانسان نفسه ليصبح فوق الانسان ، ثم يذكر أنه لا يكفى العقل الخالص ، ولا الحالة الفردية التجريبية ، بل الواجب هو التركيب بينهما ، وهذا ما أدركه القرآن الكريم فى قوله « فاتقوا الله ماستطعتم » (١) • فهذه الصيغة ليس معناها أن نفعل ما يحلو لنا ، وليس معناها أن نخضع للحكم العلوى ، وانما نجد طرفى السلسلة قد اجتمعا •

وفى فصل « الجزاء » يستدل بنصوص من التوراة ، تثبت أن السعادة الموعودة انما تكون فى طيبات هذا العالم ، ويستدل بنصوص من الانجيل تدل على أن السعادة انما تكون فى الآخرة • ثم يذكر أن القرآن الكريم « يريد أن يجمع بين هذين المفهومين ، والحق أن الأمر بالنسبة الى القرآن أمر مصالحة وتوفيق ، فهو يريد أن يثبت فى وحدتهما الأولية عنصرين متكاملين لواقع واحد ، عمل الشراح الكتابيون بصورة ما على شطره ، حين ألح كل فريق من جانبه الحاحا شديدا ، على الجانب الذى تركه الآخر فى كنف الغموض » (ص ٢٤٣) • ثم أخذ يورد الآيات التى تدل على أن الجزاء ، انما يكون فى الدنيا وفى الآخرة معا ، مثل قوله تعالى « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة » (٢) وقوله تعالى « أفتؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض • فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب » (٣) •

وفى فصل « النية والدوافع » يذكر « ان فكرة وجود الله ذى الجلال

---

(١) التغابن ١٦
(٢) البقرة ٢٠١ •
(٣) البقرة ٨٥ •

فى كل مكان ، تلك الفكرة التى تملأ نفوسنا اهتماما بالأخلاق وبالصرامة نحو أنفسنا ــ هذه الفكرة تخففها بدورها فكرة الرحمة ، التى تمد يدها دائما الينا ، لا من أجل أن تتلقى أولئك الذين يرجعون من غفوتهم ، ويحاولون أن ينهضوا من كبوتهم فحسب ، ولكن من أجل أن تساعدهم وتمدهم بقوة يتراحب مداها دائما • فى هذا الضوء يصف لنا القرآن حالة نفس المؤمن ، فهى ليست يائسة من روح الله « انه لا ييأس مِن روح الله الا القــوم الكافرون » (١) ولا هى آمنــة من مكره « فلا يأمن مكر الله الا القــوم الخاسرون » (٢) • وانما هى دائما فى منتصف طريق بين الأمل والخوف ، وبالأحرى تغذى كلا الشعورين فى وقت واحد « يحذر الآخرة ويرجــو رحمة ربه » (٣) واذن فهو حوار حى ، بين لطف وهمة ، وشجاعة وأمل • وهو حوار يتعهد شعلتنا دون أن يحرقنا بهــا ، ويرطب قلوبنا دون أن يسلبها حميتها ، فكل شىء متوازن ومتناسب ، وهذا هو مجموع الشروط الضرورية ، والكافية لبناء عمل دائم وخصب » (ص ٤٨٠) •

ثم يعلق فى نهــاية الأمر (ص ٦٨٦) على النظرية الأخــلاقية كما صورها القرآن الكريم ، فيرى أنها تعمل على التوفيق بين شتى النزعات ، وأنها متحررة ونظامية ، عقلية وصوفية ، لينة وصلبة ، واقعية ومثالية ، محافظة وتقدمية ، وكل ذلك فى آن واحد ، الى أن يقول : « انها بنــاء عضوى حقيقى ، تتعاون فيه كل العناصر ، وتتساند كل الوظائف ، ولقد استطعنا أن نشهد كيف يمتزج المثــالى بالواقع العملى ••• وصرامة الاطار تسير مع المرونة فى المضمون جنبا الى جنب ، فيشتركان فى حفظ النظام وفى تحقيق التقدم ، ورأينا كيف يكتمل العقل بالايمان ، وكيف يعتمد الايمان على العقــل ، وكيف يراقب الفرد حسن ســير الحيــاة

---

(١) يوسف ٨٧
(٢) الأعراف ٩٩
(٣) الزمر ٩

الأخلاقية العـــامة ، وان كان مكلفا بمسئوليته الخاصة ، وكيف يشعر المجتمع من ناحية أخرى بسموه وبحقه المقدس بالنسبة الى أعضائه .. ثم يشعر فى الوقت نفسه بالواجب الملح الذى يقع على كاهله أن يضمن للمحرومين قدرا مناسبا من الرفاهية ... هذه الجدلية كلها ، هذا المـد والجزر ، يتردد حول المبدأ الوحيد الذى يقع فى قلب النظام ، والذى يمكن أن يتلخص فى فكرة التقوى ، وهو مفهوم مركب بدوره ، لأنه يضم أعمق الاحترام للمثل الأعلى ، والبحث عن أفضل الظروف التى تفرضها الطبيعة بقدر الامكان .

ولا يعنى هـــذا أن الدكتور دراز قد جعـــل من الوسطية محورا لدراسته ، بل انها الأقوال المتناثرة التى التقطها من هنا وهناك ، والتى تأتى فى ثنايا كلامه ، دون أن يعى هذه الصفة وأن يجعل منها منطلقـــا لدراسته ، بل انه فى بعض الفصـــول يخرج على هـــذه الوسطية التى تمثلت عند السلف وأهل السنة ، فى محاولة لكى يقترب من المعتزلة ، ومن بعض المتصوفة . ففى فصل « المسئولية » وبعد أن شرح العلاقة بين الارادة البشرية والارادة الالهية ، نراه يسوق تحفظين على رأى أهل السنة ، اختل بهما التوازن الذى يحرص عليه هذا الفريق ، وبدا كما لو أنه يضخم جـــانب الارادة البشرية ويقترب من أراء المعتزلة ، فيعلى من شأن ارادة الفرد وحريته ، وتكون النتيجة أن الارادة العليا تصبح سالبة وتابعة للارادة البشرية ، وتنتظر قرار البشر حتى يمكن اعتمـــاده ، فهى ليست ذات سلطة مطلقة ، ولكنها مجرد رمز يقـــوم بالتصديق على القرارات التى تقدم اليه « لأن الله لا يفعل ذلك ابتداء مطلقا ، وانما هو يجريه كنوع من الاجراء المقابل ، أى كرد على بعض الأشياء من جانبنا ... فنحن الذين بدأنا بأن انفتحنا على النور ، أو بأن تحولنا عنـــه « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهـــو له قرين » (١) ... » (ص ٢١١) « واذن فالارادة والحرية هما من الناحية

---

(١) الزخرف ٣٦

العملية مترادفان ، وليس لأية قوة فى الطبيعة ـ باطنة أو ظاهرة ـ سلطة كافية لكى تحرك أو توقف النشاط الجوانى لارادتنا » (ص ٢٤١) .

وفى فصل « النية والدوافع » ، وحين يتحدث عن النية الحسنة ، يختل التوازن عنده مرة أخرى ، وذلك فى محاولة لكى يقترب من آراء كانت عن الواجب لذاته ، والتى يجعلها البديل الميتافزيقى للنظرية القرآنية فيذكر أن القرآن الكريم دائما يوجه المسلم نحو الاتصال بالمثل الأعلى « انه مشروع عظيم ينتزع الأنفس من هذا الحيز الارضى ، ويجذب أنظارها الى السموات ، بحيث يمكن القول بأن سيطرة هذه الفكرة الالهية هى التى تحكم الخطاب القرآنى » (١) (ص ٤٨٣) . فهو هنا يميل الى تضخيم فكرة الاتصال بما يسميه : المبدأ الأسمى . ويصبح ما عدا ذلك « ذل ودناءة وضياع للقيمة » أو يصبح « تفاهة ونفى للقيمة » فالعبارتان سواء والخلاف جانبى ، فالنتيجة فى النهاية خضوع تام للمبدأ الأسمى ، لا يبقى للنظرة الدنيوية كقيمة خلقية شيئا ، ويضيع الموضوع المباشر فى الغاية الأخيرة ، اذ لا تصبح هذه قيمة للموضوع المباشر ، وبذلك يقترب من آراء بعض الفلاسفة ، وبنوع خاص «كانت» الذى يقول عنه بصدد تلك النقطة « ولقد كان كانت على صواب فى هذه النقطة ، ولكنه لم يفعل سوى أن قلد وجهة نظر الأخلاق الدينية ، وان عراها من جوهرها الحقيقى » (ص ٥٨٠) .

ومن هنا لم تعد الوسطية عنده بمفهومها المطلق ، الذى يعنى العدالة والتوازن بين الشيئين ، بل أضاف اليها صفة أو قيدا ، حتى

---

(١) يقول : « والواقع أن هذا الكتاب (القرآن) فى صفحاته الخمسمائة ، التى يتألف منها عادة ، بلغت القائمة التى أحصيناها لذكر الله فيه عدد (١٠٦٢٠ مرة) اى أن الله مذكور فى الصفحة المكونة من ١٥ سطرا عشرين مرة فى المتوسط » (ص ٤٨٣) .

تتناسب مع فكرته عن المبدأ الأسمى ، فسماها « العدالة النبيلة » ، أى الوسطية التى تسعى دائما للاتصال بالمبدأ الأسمى « فان الاعتدال الذى يمدحه الاسلام بدرجة الجهد ، لا يتمثل فى الوسط الحسابى ولا فى نقطة الذروة ، هما القولان اللذان يتردد بينهما الفكر الأرسطى ، وانما يتمثل الاعتدال فى نبل يقترب بقدر الامكان من الكمال ، مقرونا بالسرور وبالأمل ، وهو ما يعبر عنه رسول الله فى توجيهاته بالرفق ونحو ما هو عدل فى ذاته « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا » (ص ٦٧٤) .

وانتهى به هذا الموقف الى نتيجة تتلاءم تماما مع مقدماته ، فقد دعا فى فصل « الجهد » ، شأن كثير من الفلاسفة وغلاة المتصوفة ، الى الغاء الصراع والوصول الى أخلاق ساكنة ، يميت فيها المرء قوى المقاومة ، ويخلص لحالة شبيهة بأخلاق القديسين والزهاد « الغاية من الصراع لا تكمن فى الصراع نفسه ، بل فى النصر الذى يسفر عنه ... ولسوف لا نغالى مطلقا حين نؤكد ، أن كل الاهتمام الأخلاقى ، كما وضعه المتصوفة المسلمون ، كان موضوعه على وجه التحديد أن يوقف ضرورة هذا الانهماك فى المقاومة ، وأن يحقق نوعا من التوازن الداخلى أو يقترب منه بقدر الامكان » (٦٠٢) « ان الأخذ بالرأى المقابل الذى يحدد العمل الأخلاقى ، بأنه الذى يؤدى مع أكبر قدر من المقاومة ، معناه الاصرار الغريب على أن يظل الانسان فى المرحلة البدائية ، حيث يكون عرضة لحشد من المشاعر الشرسة غير المستأنسة ، التى لا يستطيع مقاومتها الا اذا استدعى أكثر المقاتلين بأسا » (ص ٦٠٦) « فمنذ أن تصبح الارادة الطيبة لا يناوئها عدوها ، وحين لا تصبح هناك ضرورة للجهد المكافح ، فان جهدا آخر يطرح نفسه ويفرضها ، فالوقت والقوة اللذان كانا مخصصين لأعمال الهدم وازالة الأنقاض ، سوف يدخران منذئذ الى أن يصبحا أعظم قدرا ، وأكثر استجماعا لأعمال الانتاج والبناء » (ص ٦١٢) .

لقد انفلتت منه الشعرة الرقيقة جـدا ، والحادة جـدا كالصراط المستقيم ، والتى يهتدى اليها المرء خلال التوازن الدقيق بين الجانبين • حقا ان الاسلام لا يكتفى بالواقع ، بل يلمح الى مثل أعلى لمن يطيق • فالقصاص مشروع ولكن الصبر خير والعفو أقرب للتقوى « وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (١) « وأن تعفوا أقرب للتقوى » (٢) • والدنيـا مطلوبة ولكن الآخرة أبقى « وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » (٣) « وللآخرة خير لك من الأولى » (٤) •

ولكن المثل الأعلى الذى يطمح اليه الاسلام يتنامى خلال الواقع ، فهو لا يلغى البشرية ، بل يؤكدها ويضعها فى اختبارات تمتحن بها صلابة الارادة ، ان النصوص القرآنية تميل الى تفضيل البشر وتدعو الملائكة للسجود لهم (٥) • وذلك لأن الملك مخلوق من نور لا يحس بصراع ولا تناقض ، بل هو موجه نحو غايته بشىء يشبه الجبرية ، أما البشر فهو المخلوق الذى يعانى الصراع ، والذى هو مطالب بتوجيه الصراع نحو الأفضـل • ان قصـة هاروت وماروت كافيـة لابراز جانب الصراع فى الطبيعة البشرية ، فقد احتجا على البشر الذين يرتكبون الخطيئـة ، فابتلاهما الله ومنحهما تلك الطبيعة ، ليمتحن قدرتهما على تحمل الصراع ولكنهما أخفقا فى الامتحان وارتكبا الخطيئة ، فردا عن السماء « فاستغاثا برجل من بنى آدم فدعا لهما فاستجيب له » (٦) • وقيل انهما قد مسخا عمودين من دخان معلقين بين السماء والأرض الى يوم القيامة •

---

(١) النحل ١٢٦
(٢) البقرة ٢٣٧
(٣) العنكبوت ٦٤
(٤) الضحى ٤
(٥) انظر سورة البقرة ٣٠ ــ ٣٤
(٦) تفسير الطبرى ٢/٤٣٤

وحقا ، قد أثمرت تلك الأخلاق تصوفا تحقق فيه التوازن الداخلى ، ولكنه تصـــوف دقيق للغـــاية ، يختلف عن تصـــوف الفلاسفة ، وعن تصوف الغلاة من الصوفية • فهو لا يطـــرح المسئولية ، ولا يلغى فى الوقت نفسه الصراع ، وقـــد رأينا الجنيد يشير الى الواردات الكثيرة التى ترد على قلب الصادق ، لأن قلبه حى يتعرض للصراع بين مختلف النوازع البشرية ، بخلاف قلب المرائى فهو فارغ مثل خربة لا يجد فيها الشيطان مأربه •

والاسلام يقف من الغرائز موقفا معتدلا ، فهو لا يلغيها ولا يطلق لها العنان • بل يوجهها لخدمة الانسان ، يشرح ابن القيم (١) الموقف من الغرائز ، فيذكر أن فريقا يتركها تندفع كالنهر يهدم كيف يشـــاء ، وهو موقف متطرف لا تتصف به « النفوس الزكية » ، وهناك فريق آخـــر يريد أن يقطع النهر من ينبوعه ، وهو موقف متطرف أيضا يخالف الطبيعة البشرية • ثم هو يرضى الموقف الوسط الذى لا يرفض هذه الميول لأنها لم تخلق سدى ، بل يوجهها لخدمة الانسان ، فيقول « ان هذه الصفات ما خلقت سدى ولا عبثا ، وأنها بمنزلة ماء يسقى به الورد والشـــوك والثمار والحطب ••• فرأوا أن الكبر نهر يسقى به العلو والفخر والبطر والظلم والعـــدوان ، ويسقى به علو الهمة والأنفة والحمية والمراغمـــة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم ، وهذه درة فى صدفة ، فصرفوا مجراه الى هذا الغراس ، واستخرجوا الدر من صدفته ، وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم أبا دجانة يتبختر بين الصفين فقال : انها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذه المواضع » •

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٧٥

يتضح هذا الموقف المعتدل فى غريزة الجنس (١) ، فهم لا ينظرون اليه نظرة خجل ، وقد تحدثوا فى كتبهم عن محاسن الباه ، وأركان النكاح ، وآداب الجماع ، وكيفية الاغتسال وغير ذلك ، وأدركوا أنه طاقة تحتاج الى توجيه ، وأن كبتها يؤدى الى اضطراب ، وكان بعض الزهاد والعلماء — مثل ابن عمر رضى الله عنهما — يشبع هذه الطاقة قبل الصلاة « وذلك لتفريغ القلب لعبادة الله واخراج غدة الشيطان منه » (٢) • ولكنهم فى الوقت نفسه لم يطلقوا العنان لهذه الغريزة • فلم يظهر فيهم مثل مزدك وزرادشت كما لاحظ أبو حيان ، مع أنهم « أشد غلمة من غيرهم » (٣) •

* * *

وقد ترتب على الغاء الصراع نتائج خطيرة ، سواء كانت من جانب الفلاسفة أو غلاة المتصوفة • فالفلاسفة هدفوا الى مرحلة « السكون » التى يتغلبون فيها على الغرائز بحيث لا يناوئهم مناوىء ، ومن هنا فهم يفضلون الملائكة على البشر (٤) ، وذلك لاستغنائها عن الغذاء وبقاء جوهرها كما يقول مسكويه (٥) • لقد أصبحوا من جنس الملائكة ولكن

---

(١) « ويقف أبو حامد من هذا الميل نفس الموقف الذى يقفه من الميول الأخرى ، فهو ليس مذموما فى ذاته ، وليس محمودا فى ذاته أيضا ؛ اذ ان فى كل ميل مقدارا محمودا ومقدارا مذموما ، ويكون هذا الميل محمودا عندما يتحقق فيه المقدار الذى لابد منه لحفظ النوع ، وبعبارة أخرى : حين يكون مطيعا للعقل والشرع باستمرار وعلى حال من الاعتدال » (الدراسات النفسية عند المسلمين ص ١٨٨) .

(٢) الاحياء ٦٩٦/١

(٣) الامتاع والمؤانسة ٩٢/١

(٤) اخوان الصفا ٢٠٩/١ . ربما كان من بقايا تأثير الفلسفة على الغزالى ، هو قوله فى بعض كتبه (مقاصد الفلاسفة ص ١٧٨) الى تفضيل الملائكة ، وأن البشر يسعون لتحقيق مرحلة النورانية ، اى مرحلة الملائكة .

(٥) الهوامل والشوامل ص ١١٥ .

ليس لهم فضل الملائكة ، فالملائكة مخلوقون لهذا وكل ميسر لما خلق له ، أما هم فقد عجزوا عن التحكم فى الصراع فأماتوه واحتجوا على طبيعتهم وظنوا أنهم قد أصبحوا خالصين لحياة المثل والنورانيـة ، فاذا بهم يصبحون كمثل أفلاطون « ليست بذات لون ولا شـكل » (١) ، أو كاله أرسطو يقف كالتمثال وحوله عساكر من خشب تحاكيه (٢) .

أما غلاة المتصوفة فقد ادعوا حلول الله فيهم « وكيف يتصور أن يحجبـه شىء وهو الذى ظهـر فى كل شىء » (٣) كما قال ابن عطاء الله السكندرى . ومن هنا ألغوا الصراع ، واطرحوا التكاليف ، وأصبحوا فوق المسئولية ومن جنس الآلهة التى تتحكم فى النواميس الطبيعية . ولا ينتظـر من موقف كهذا أن يثمر أخلاقا انسـانية ، فالأطر ثابتة ، والانسان الكامل فى نظرهم لا يتغير منذ كان الوجود الى أبد الآبدين كما يقول الدكتور أبو العلا عفيفى (٤) ، وضاع الالزام الخلقى « واختفى الواجب مبدأ أخلاقيا يسير بمقتضاه سلوك الانسان » كما يقول الدكتور توفيق الطويل (٥) .

أما الصوفية الوسطية فهى تضيف عنصر الصراع والحركة ، التى تجعل المـرء مترقبا ومتنبها ، ودائما فى خشية أن تفلت منه الشـعرة الدقيقة ، وهى صوفية ، لا تخرج بالمرء الى جنس الآلهة ، ولا تؤدى به الى سكون كسكون الأموات .

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٧٢

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٨١

(٣) متابعة الأسرار ص ٨٤ . وابن عطاء الله السكندرى هو ابو الفضل تاج الدين بن عطاء الله . ولد بالاسكندرية سنة ١٢٥٩ م ، وهو صوفى مصرى من اقطاب الشاذليـة ومن أشهر مؤلفاته : الحكم العطائية ـ لطائف المنن ـ التنوير فى اسقاط التدبير . وتوفى سنة ١٣٠٩ م .

(٤) محيى الدين بن عربى ص ٣١

(٥) محيى الدين بن عربى ص ١٧٣

ولعل الوقت قد حان لكى نفرق بين **سكينة وسكون** ، فالسكون يعنى تجمد الحركه واختفاء الصراع بحيث تصبح « الارادة الطيبه لا يدونها عدوها » وهى حالة تأتى نتيجه التامل والنظر البعيد عن الواقع ، فالعقل يقتطع جزءا من الحياة ، ويصوغه فى قالب فكرى ، او فى قاعدة قد تعين على فهم الحياة ، ولكنها ابدا لن تكون بديلا عن الحياة • يحلل برجسون فكرة الاله عند الفلاسفه (١) ، فيراها ترتد فى النهاية الى حالة ثابتة • ان العقـل يقلق حين يرى الاشياء فى الواقع متحـركة ومتغيرة وتنسل بين أيدينا ، فيهتدى — من باب التقابل — الى فـكرة أن هناك نماذج ثابتة وجوهرية ، خلافا للأشياء الواقعية التى تتغير أمامنا • ذلك هو اصل الفكرة فى مثل أفلاطون ، وكان اله أرسطو صدى لتلك الأفكار عن النماذج الثابتة ، وتواتر الفلاسفة بعد أرسطو على ذلك ، حتى كأن هناك نتائج كثيرة مخزونة فى اللغة ، وخيل للمفكر بعد أن أوغل المجتمع بعيدا ، أن هذه النتائج هى الأصل ، وأنها نماذج « ما الأشياء المتغيرة الا متحركات لها » • وهكذا تنعكس الأمور نتيجة للفكر النظرى ، يقول برجسون « وهذه الصفات التى ليست الا صورا اختطفت لحظة من الحركة ، نأتى نحن فننظر اليها على أنها الواقع ، وعلى أنها هى الجوهرى وما ذلك الا لأنها هى ما يعنينا من فعلنا فى الأشيا ء، وهكذا يكون التوقف فى نظرنا سابقا على الحركة أو أعلى من الحركة ، ولا تكون الحركة الا اضطرابا ينزع الى السكون ، ومن ثم يـكون الثابت فوق التغير ، ولا يكون التغير الا عجزا ونقصا وسعيا للشكل النهائى » •

ويمكن أن ينطبق هذا التحليل على المبدأ الأسمى عند الفلاسفة ، سواء كان يطلق عليه المحرك الأول ، أو العقل الفعال ، أو المطاع ، أو المبدأ الأول ، أو العقـل الخالص ، أو حتى اله المعتزلة ، فمهما كانت الأسماء أو كانت مدلولاتها ، فالنتيجة واحدة وهى : أننا ازاء اله مخلوق

---

(١) منبعا الاخلاق والدين ص ٢٥٧

من نتاج البشر ، بل نتاج فئة قليلة تجتر أفكارها ، فلا يكون له تأثير على الجماهير ، وهنا سر القطيعة بين العامة والفلاسفة ، أى بين غالبية تتصق بالتجربة الحية ، وقلة منعزلة تعيش وفقا لأفكار ثابتة ومقتطعة من الواقع الحى ، فترتمى آخر الأمر فى « أتاراكسيا الأبيقوريين » أو « آباثيا الرواقيين » على حد تعبير برجسون وهو يتحدث عن الأخلاق المغلقة ، والتى هى نتيجة موقف عقلانى » (١)

أما السكينة فيعرفها ابن القيم بأنها « الطمأنينة والوقار والسكون الذى ينزله الله على قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه » (٢) فهى لا تعنى اختفاء الصراع فى حالة من السكون تشبه راحة الأموات ، بل تعنى تنظيم الحركة وتنقيتها من الاضطراب ، وتغليفها بشىء من الطمأنينة تخلص المرء من شدة المخاوف « ولهذا أخبر سبحانه عن انزالها على رسوله وعلى المؤمنين فى مواضيع القلق والاضطراب ، كيوم الهجرة اذ هو وصاحبه فى الغار والعدو فوق رءوسهم » كما يقول ابن القيم • فهى ليست شيئا من وراء الحركة ولا تهدف الى العزلة ، بل هى شىء يتولد فى ذروة الصراع ، وفى ابان القلق والاضطراب ، فيمنح النفس ثباتا ، ولا يجعل القلق يتحول الى حالة مرضية منزعجة • فهى ليست حركة فقط ، وليست سكونا فقط ، بل هى شىء يجمع بين الحركة والسكون فى أنظومة أخيرة تسمى السكينة ، وفى صفة الرسول فى الكتب المتقدمة « انى باعث نبيا أميا ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا متزين بالفحش ، ولا قوال لاخنا ، أسدده لكل جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، ثم أجعل السكينة لباسه »(٣) فهى الخلق الذى لا يصل الى حد الصخب فى الأسواق ، وهى الوقار عند نبى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق •

---

(١) منبعا الأخلاق والدين ص ٧٢
(٢) مدارج السالكين ٢/٢٧٨
(٣) مدارج السالكين ٢/٢٧٨

ويتحدث ابن القيم عن منازل للسالكين تثمر فى النهاية موقفا خلقيا ، لا ينعزل عن الدنيا ولكنه لا يغرق فيها ، ولا ينسى الآخرة ولكنه لا يصل الى جنس الملائكة • فمنزلة السكينة تثمر سكون الخائف اليه ، ومسلى الحزين والضجر به ، واستكانة صاحب المعصية له • ومنزلة الرضا تثمر : استواء الحالات فى النعمة والبلية والرضا بحسن اختيار الله ، وسقوط الخصومة مع الخلق ، والخلاص من المسألة والالحاح •

وتلك الأخلاق فى مجموعها نستطيع أن نصفها بأنها أخلاق قوة ، لا بالمعنى الذى أشـــار اليه نيتشه والذى يهـدف الى التسلط متأثرا بشوبنهور وفاجنر (١) ، بل قوة الذى يرتبط بالحياة ويأخذ بالأسباب ، ولكن لا تستعبده الحياة ، ولا يصير نهبا للمشاعر الضارة ، فهو يؤمن بحسن اختيار الله له ، ومن هنا تستوى الحالات عنده فى النعمة والبلية ، فلا يندفع مع السرور ان جاءه خير ، ولا يندفع مع الحزن ان جاءه شر ، ولا يدخل فى صراعات ضـــارة مع الآخـــرين تشله عن الهدف الحقيقى « فلو رجع العبد الى السبب والموجب لكان اشتغاله بدفعه أجدى » •

وهذا يحدد مفهوم « الفقر » الذى امتدحه الاسلام ، فهو لا يعنى الانصراف عن طيبات الحياة والزهد فى المادة والرضا بالقليل ، وسقوط الهمة الذى يؤدى الى السؤال والالحاح ، ولكنه لا يعنى أيضا الانشغال بالمادة حتى تستعبده فان هذا ينافى حال التوكل • وانما هو يعنى حالة وسطى ، وهى أن يأخذ بأسباب الحياة دون أن تستعبده ، أن يضرب فى الأسباب الدنيوية ولكن لا يصير نهبا للمشـــاعر الضارة « قيل للامام أحمد : أيكون الرجل زاهدا ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم ، على شريطة ألا يفرح اذا زادت ، ولا يحزن اذا نقصت • ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما فى أيديهم من الأموال • وقيل لسفيان الثورى : أيكون ذو

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٩٤

المـال زاهدا ؟ قال : نعم ، ان كان اذا زيد فى ماله شـكر ، وان نقص شـكر وصبر » (١) .

وتكون نتيجة السكينة فى آخر الأمر حالة وسـطى بين السـكون والانزعاج ، يتحقق فيها — وفى معترك الحياة — برد القلب وبعده عن القلق ، واحساسه بالرضا الذى لا يصل الى حد الجمود ، أو باختصار يصل الى حالة « الأنفس المطمئنة » التى ذكرها القرآن الكريم « يأيتها النفس المطمئنة ، ارجعى الى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » (٢) « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (٣) . انها أنفس راضية ، رطبة ، تحس بالسلام وبالثقـة فى النتائج ، التى لن تخيب أبدا ، مادامت هناك عناية الهيـة عادلة .

* * *

ان الفرق بين السكينة والسكون انما هو نتيجة لنقط البدء عنـد أخلاق تقوم على الفلسفة ، وأخلاق تقوم على الدين . فالأخلاق التى تقوم على الفلسفة انما هى علم وقواعد ، والفاضل عند أفلاطون هو « الحاصل على العلم بالخير ويعرف ما يجب أن يفعل فى كل حالة » (٤) وعند أرسطو « هو الذى يعمل بموجب القاعدة القويمة » (٥) .

وقد نقد برجسون أخلاق الفلاسفة ، لأنها تقوم على النظر والتأمل، وتفتقد الحماسة وجو الانفعال ، ومن هنا لم تصل الفلسفة اليونانية فى رأيه الى التصوف الكامل ، وحقا قد انتهت عند أفلوطين الى حالة الوجد

---

(١) مدارج السالكين ٢٦٣/١
(٢) الفجر ٢٧ — ٣٠
(٣) الرعـد ٢٨
(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية ٩٦
(٥) تاريخ الفلسفة اليونانية ١٩٦

« ولكنه لم يتجاوزها الى الحالة التى ينقلب فيها التأمل عملا ، فتتحد ارادة الانسان بارادة الله ، وكان الصعود الى أعلى من هذا هبوطا فى رأيه ، وذلك ما عبر عنه فى كلام رائع ، ولـكنه ليس كلام الصـوفية الكاملة ، فقال « ان العمل يضعف التأمل » ، وهو بهذا قد ظل أمينا على النزعة العقلية اليونانية » (١) .

أما الأخلاق التى تقوم على الدين فهى تنفر من الجـدل الذهنى والنظريات العقلية ، وتهتم بالعمل ، فالبخارى فى كتاب « الايمان » لا يشرح ماهيات ، ولا يقدم تعاريف ، ولا يتتبع تقسيمات عقلية ، ولكنه يشير الى سلوك ومواقف عملية ، فهو يتحدث عن «باب دعاؤكم ايمانكم — باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده — باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الايمان — باب حلاوة الايمان — باب الحيـاء من الايمان — باب من قال ان الايمان هو العمل — باب الصلاة من الايمان — باب ما جاء أن الأعمال بالنية » . وفى باب العلم لا يقدم جدلا حـول الحس المشترك والقوة المتصورة والقوة الوهمية والقوة الذاكرة ، ومكان كل منها فى مقدم الدماغ أو وسطه أو مؤخره ، وغير ذلك مما يكثر فى كتب الفلاسفة المسلمين وغيرهم . ولكنه يتحدث عن « باب قول النبى صلى الله عليه وسلم رب مبلغ أوعى من سامع — باب العلم قبل القول والعمل وأن العلماء ورثة الأنبياء — باب من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين — باب فضل من علم وعلم ... الخ » .

ولم تكن المدن الفاضلة فى الأخـلاق الدينية هندسة تهتم بالمظهر الخارجى ، ويقوم الالزام الخلقى فيهـا على القانون ، ولم تكن حلما يدور فى أذهان الفلاسـفة بعيدا عن الحيـاة والجماهير ، وفى حالة من السكون والتأملية ، بل كانت حقيقة واقعـة ، يستطيع المرء أن يحققها ولو لم يكن فيلسوفا ، لأنها تقوم على سلوك محدد وأعمال واضحة ،

---

(١) منبعا الأخلاق والدين ٢٣٧

يسيح ذو القرنين فى الأرض فيلقى « أمة مقصـــدة مقتصدة يقسمون بالسوية ، ويحكمون بالعدل ، ويتآسون ويتراحمون ، حالهم واحدة ، وكلمتهم واحدة ، وأخلاقهم شبيهة ، وطريقتهم مســتقيمة ، وقلوبهم متآلفة ، وسيرتهم حسنة ، وقبورهم بأبواب بيوتهم ، وليس على بيوتهم أبواب ، وليس عليهم أمراء ، وليس بينهم قضاة ، وليس بينهم أغنياء ولا ملوك ولا أشراف ، ولا يتفاوتون ولا يتفاضلون ، ولا يختلفون ولا يتنازعون ولا يســتبون ولا يقتتلون ولا يقحطون ولا يحــردون ، ولا تصيبهم الآفات التى تصيب الناس ، وهم أطول الناس أعمارا ، وليس بينهم مسكين ولا مقتر ، ولا فظ ولا غليظ » .

تلك هى مدينة فاضلة ذكرها الطبرى فى تفسيره (١) ، وقــد تحقق فيها ما دعت اليه كتب الفلاسفة والحــركات السياسية المعاصرة ، من حرية واشتراكية وعــدالة اجتماعية ، ولم تكن نتيجــة قوانين أو لوائح عقلية تهتم بالمظهر الخارجى ، بل كانت نتيجة ســلوك ينبع من اقتنــاع داخلى ، فقــد أخــذ ذو القرنين يسألهم عن حالهم ، وأخذوا يجيبونه « ما بال قبور موتاكم على أبواب بيوتكم . قالوا : عمدا فعلنا ذلك لئلا ننسى الموت ولا يخرج ذكره من قلوبنا . قال : فما بال بيوتكم ليس عليها أبواب . قالوا : ليس فينا متهم ، وليس فينا الا أمين مؤتمن . قال : فما بالكم ليس عليكم أمراء . قالوا : لا نتظالم . قال : فما بالكم ليس فيكم حكام ؟ قالوا : لا نتخاصم . قال : فما بالكم ليس فيكم أغنياء . قالوا : لا نتكاثر . قال : فما بالكم ليس فيكم ملوك . قالوا : لا نتكابر . قال : فما بالكم لا تتنازعون ولا تختلفون . قالوا من قبل ألفة قلوبنا وصلاح ذات بيننا . قال : فما بالكم لا تستبون ولا تقتتلون . قالوا : من قبل أنا غلبنا طبائعنا بالعزم ومسسنا أنفسنا بالأحلام . قال : فما بال كلمتكم

---

(١) سورة الكهف ٩٢

واحدة وطريقتكم مستقيمة مستوية • قالوا : من قبل أنا لا نتكاذب ولا نتخادع ولا يخدع بعضنا بعضا • قال : فأخبرونى من أين تشابهت قلوبكم واعتدات سيرتكم • قالوا : صحت صدورنا ، فنزع بذلك الغل والحسد من قلوبنا • قال : فما بالكم ليس فيكم مسكين ولا فقير • قالوا : من قبل أنا نقتسم بالسوية • قال : فما بالكم ليس فيكم فظ ولا غليظ • قالوا : من قبل الذل والتواضع • قال : فما جعلكم أطول الناس أعمارا • قالوا : من قبل أنا نتعاطى الحق ونحكم بالعدل • قال : فما بالكم لا تقحطون • قالوا : لا نمل من الاستغفار • قال : فما بالكم لا تحردون • قالوا : من قبل أنا وطأنا أنفسنا للبلاء منذ كنا وأحببناه وحرصنا عليه فعرينا منه • قال : فما بالكم لا تصيبكم الآفات كما تصيب الناس • قالوا : لا نتوكل على غير الله ولا نعمل بالأنواء والنجوم » •

ويخيل لى أن عصر الرسول وأبى بكر وعمر قد حقق تلك المدينة الفاضلة عمليا ، فقد طبقوا الوسطية العربية ، التى اتخذت من العدالة سمة رئيسية لها ، وكانوا يتبعون الحق هنا والحق هناك ، ثم يضمونه فى أنظمة أخيرة ، لها ملامحها الخاصة ، فهى تعتمد على العمل والقرب من التجربة الحية ، دون الالتصاق بها وعدم مجاوزتها ، وهى تتميز بالحركة التى تدل على الحياة وعلى القلق الصحى ، وهى تعترف بالضعف البشرى أمام التجارب المتنوعة والمختلفة ، وتدرك دقة الوصول الى الشعرة الرقيقة ، فتلتمس الهداية من العناية الالهية •

* * *

ان الوقوع على الشعرة الدقيقة يحتاج الى بصيرة وتوفيق ، فما أسهل أن يلتبس الأمر بين السكينة والسكون ، بين التوكل والتواكل ، بين

السلام والاستسلام ، بين الهون والهون (١) • وحينئذ ستكون السقطة عنيفة ، لأن المرء سيفقد الشعرة ويميل الى جانب ، وهـذا يعنى تحطم الأنظومة العربية ، وتجمد الحركة التى تتميز بها الوسطية العربية ، التى تنظر بعين الى جانب ، وبالعين الأخـرى الى الجانب الآخـر ، دون أن تغمضهما أحدهما أو كليهما • لأن هذا يعنى النـوم أو الموت ، أو يعنى المرض على أحسن الفروض •

وفعـلا ، ولظـروف سياسـية واجتماعية وخارجية (٢) ، تحطمت الأنظومة فى العصر الحديث وتعطلت الحركة الموازنة ، والتبست مفاهيم الألفاظ ، فاختلطت السكينة بالسكون والهون بالهون •

انمـا أوتى العرب من قبل تلك الشعرة الرقيقة ، وأدرك المكر السيىء ــ الممثل فى العنصر الخارجى ــ حرج تلك النقطة ، فاقتاد العرب منها ، كما يقتاد الحمار من أنفه ، اذا لم ننزعج من هذا التشبيه الذى أطلق على عطيل وهو فى ابان محنته (٣) •

ثم تمادت المأساة وسقط البطل بصورة عنيفة ، وأصبح الذى كان عطيلا طفلا تسـوقه الخيزرانة ، ويلخص مأسـاته فى النهاية بأسلوب درامى « رجل غلب الأسى عينيه ، على أنهما لم تكن من شيمتهما البكاء ، فذرفتا من الدموع أغزر ما تنضحه أشـجار جزيرة العرب من صـمغها الشـافى » •

* * *

(١) « وعباد الرحمن الذن يمشون على الأرض هـونا » اى سكينة ووقارا ، متواضعين غير اشرين ولا مرحين ولا متكبرين . قال الحسن : علماء حلماء . وقال محمد بن الحنفية : أصحاب وقار وعفة لا يسفهون ، وان سفه عليهم حلموا . والهون بالفتح فى اللغـة : الرفق واللين . والهون بالضم : الهوان فالمفتوح منه صـفة أهل الايمان ، والمضموم صـفة أهل الكفر » (المدارج ١٨٣/٢) .

(٢) أنظر : العرب ص ٤٠

(٣) عطيل ص ٤٣